

عمر بن قذور

« أشكو إلى الله من ضعف الأمين وخيانة القوي »

بقلم: أ. رغداء زيدان



إن الحديث عن عمر بن قذور هو حديث عن رجل مسلم عامل ، اهتم بقضايا أمته الإسلامية ، فانطلق من دائرة اهتمامه ببلده الجزائر ، إلى دائرة أوسع ، فاهتم بقضايا الأمة العربية والإسلامية عموماً فكان يجسد صورة المسلم الساعي لإنهاض الأمة من كبوتها ، وكان يؤمن أن العمل من أجل الإصلاح هو عمل يجب أن يهتم بصلاح الجزء كما يهتم بصلاح الكل ، فصالح الأقطار المسلمة على المستوى القطري سيؤدي إلى نهوض الأمة الإسلامية عموماً ، وصالح هذه الأمة هو رفع ورفع وحماية ونهوض لأجزائها الصغيرة .

عاش عمر بن قذور في فترة صعبة من تاريخ الجزائر ، فترة كانت الجزائر فيها مرتعاً لمستعمر بغيض ، حاول بشراسته الدنيئة محو هوية الجزائر الدينية والثقافية والعربية ، ساعده في ذلك انتشار للطرقية المنحرفة ، التي اتخذت من الدين ستاراً لتسيطر على أبناء الشعب الجزائري ، فكان المحتل يسعى للتدمير المادي ، والطرقية المنحرفة تعمل للتدمير الروحي والمعنوي .

هذا الوضع الخطير الذي عانت منه الجزائر ، كانت البلاد العربية عموماً تعاني منه على درجات متفاوتة ، وكذلك البلاد الإسلامية الأخرى ، فقد كانت السلطنة العثمانية تعيش آخر أيامها ، وكانت البلاد الأوروبية تتسابق لتنهش من جسد الرجل المريض ، وكل واحدة منها تسعى لنيل الحصة الأكبر من هذه التركة الثمينة .

إلا أن هذا الوضع البائس للأمة الإسلامية شهد بروز إرهابات نهضوية بالغة الأهمية على يد رجال سعوا للإصلاح ، وعملوا على توعية الشعوب ، وحاولوا تدارك الخطر المخلق بها ، على رأسهم جمال الدين الأفغاني (١) ومحمد عبده (٢) الذين أشعلا جذوة الحماسة في نفوس العاملين المصلحين في كل بلاد الإسلام ، ومنها الجزائر طبعاً .

(١) - جمال الدين الأفغاني ، اسمه محمد بن صفدر ، اختُلف في مكان ولادته ، فبعضهم قال أنه وُلد في أسعد آباد على مقربة من كابل ، وقد ذكر آخرون أنه وُلد في إيران ، عام ١٢٥٤/١٨٣٨ . نشأ نشأة علمية ، وكان يعرف لغات متعدّدة منها الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية ويلمّ بالإنكليزية والروسية . جال في العالم الإسلامي محاولاً النهوض بالمسلمين ، ومحارباً الاستبداد . أصدر جريدة العروة الوثقى سنة ١٣٠١/١٨٨٤ وكان مضرب المثل في الجرأة والشجاعة ، وله مؤلفات منها: الرد على الدهريين ، و تتمه البيان في تاريخ الأفغان ، وغيرها ، توفي في ١٣٦٤/١٨٩٧ ؛ انظر ، خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط١٠ ، ١٤١٢/١٩٩٢ ، ٦ ، ١٦٨ ؛ وعبد القادر المغربي ، جمال الدين الأفغاني ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٣ ، دت ، ٩ وما بعدها .

في هذه الظروف المضطربة ولد عمر بن قدور في مدينة الجزائر ، عام ١٣٠٥ / ١٨٨٦ ، وبها نشأ وتعلّم ، فصار شاعراً ، عُرف باتجاهه الإصلاحية ، وعمل بالصحافة ، وعني بالقضايا التي تهم المسلمين في كل مكان ، فنشر مقالاته الإصلاحية الثورية في صحف عديدة ، منها صحف في مصر كالمؤيد (٣) ، واللواء (٤) ، وأخرى في تونس كجريدة التقدم (٥) والمشير (٦) ومرشد الأمة (٧) ، ثم أخذ يرأس جريدة الحضارة (٨) ، التي كان يصدرها الشيخ الشهيد عبد الحميد الزهراوي (٩) في الأستانة .

كان عمر بن قدور صحفياً متحمساً ، ومهتماً بقضايا الأمة العربية والإسلامية ، وكان يحاول إيصال صوت الجزائر إلى المسلمين في كل مكان ، وهذا بالطبع أزعج السلطات الفرنسية ، حيث دعاه الوالي العام الفرنسي آنذاك

(٢) - محمد عبده ، ١٨٤٩ / ١٢٦٦ - ١٩٠٥ / ١٣٣٣ ، ولد في قرية محلة نصر ، تلقى علومه الأزهر ، اتصل بالشيخ الأفغاني . لازم ثورة عرابي ، وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات ، وهو يعدّ من أكبر زعماء الإصلاح في القرن التاسع عشر؛ انظر ، خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ٦ ، ٢٥٢؛ وعمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، دت ، ١٠ ، ١٧٩ .

(٣) - المؤيد ، صدرت في أول ديسمبر ١٨٨٩ م ، ودامت إلى سنة ١٩١٣ م ، لصاحبها علي يوسف ، شيخ الصحافة . كانت جريدة وطنية ، ووجدت تأييداً ساحقاً ، فقد عبّرت عن أمل الشعب باستقلال مصر ، وطلب الجلاء من الإنكليز ، ونشرت مقالات لكبار الكتاب؛ انظر ، أنور الجندي ، الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٢ / ١٤٨٢ م ، ١٥٩ .

(٤) - اللواء ، أصدرها مصطفى كامل في القاهرة سنة ١٩٠٠ م .

(٥) - التّقدّم ، صدرت عام ١٩٠٧ ، وتوقّفت عام ١٩١١ م ، وكان صاحبها البشير الفورتني؛ انظر ، فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، المطبعة الأدبية ، ٤ ، ٢٥٢ .

(٦) - المشير ، صدرت عام ١٩١١ م ، صاحبها الصحفي الطيب بن عيسى ، وتوقّفت عام ١٩١١ م؛ انظر ، المصدر نفسه ، ٢٥٦ .

(٧) - مرشد الأمة ، صدرت عام ١٩٠٦ ، لصاحبها سليمان الجادوي ، وتوقّفت عام ١٩٥٠؛ انظر المصدر نفسه ، ٢٥٤ .

(٨) - الحضارة ، أسسها عبد الحميد الزهراوي مع شاعر الحنبلي ، ثم استقلّ بها وحده ، وذلك سنة ١٩١٠ م ، وكانت تصدر في الأستانة ، وكان يعتمد في مقالاتها على المنهج الهادي والمنطق الرصين ، ؛ انظر ، محمد راتب الحلاق ، عبد الحميد الزهراوي ، دراسة في فكره السياسي والاجتماعي ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٥ ، ٧٤ .

(٩) - عبد الحميد الزّهراوي ، من زعماء النهضة السياسية في سوريا ، وأحد شهداء العرب في عاليه ، ولد في حمص سنة ١٢٨٨ / ١٨٧١ ، وأصدر صحيفة المنير ، وصحيفة الحضارة ، وكتب في المقطّم والمؤيد والمعلومات . كان نائباً في مجلس المبعوثان في الأستانة عن لواء حماة ، رئس المؤتمر العربيّ الأوّل في باريس فحكّم عليه بالإعدام ، ونفّذ الحكم في ابريل عام ١٩١٦ م . من مؤلفاته: رسالة في الفقه والتّصوف ، وكتاب خديجة أمّ المؤمنين ، وغيرها؛ انظر ، عبد الإله نبهان ، عبد الحميد الزّهراوي ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ ، القسم الأوّل ، ٣٩ - ٤٨ .

ليبلغه استياء السلطات الاستعمارية من مقالاته ، وخصوصاً تلك التي كان ينشرها في صحف مصر ، وأمره أن يكف عن مراسلة صحيفة اللواء ، لأن مقالاته فيها كانت تزجج السلطات الاستعمارية (١٠).

ولما اشتد الحصار عليه من السلطات الفرنسية قرر عمر بن قدور أن يصدر صحيفة تعبر عن فكره ونهجه الإسلامي الإصلاحي ويكون هو مالکها ، ويصدرها من الجزائر نفسها ، فأصدر صحيفته الهامة « الفاروق » ، والتي اعتبرها بعض الباحثين بداية الصحافة العربية الوطنية في الجزائر (١١). وبداية الصحافة الإسلامية فيها أيضاً ، فكما جاء في افتتاحية عددها الأول أنها جاءت لتسد ثلثة عدم وجود جريدة إسلامية بكل معاني الكلمة في القطر الجزائري (١٢).

عمر بن قدور والفاروق:

صدر العدد الأول من الفاروق في ١٨ فبراير (شباط) من عام ١٩١٣م ، في مدينة الجزائر ، وكانت عبارة عن أربع صفحات قياس ٥٠ × ٣٠ سم ، وكانت تطبع في مطبعة خاصة في الجزائر ، وكانت تصدر أسبوعياً باللغة العربية (١٣). وقد اختار لها عمر بن قدور اسم الفاروق ، « لتكون بمشربها الاعتدالي ، فارقة بين الحق والباطل ، وأمرة بالمعروف ناهية عن المنكر » (١٤).

وبالفعل ، كانت هذه الصحيفة داعية للإسلام ، وعاملة على نهوض أقطاره ، وكانت تتوج صفحاتها النافعة ببيت من شعره يقول فيه :

قلمي لسان ثلاثة بفؤادي * ديني ووجداني وحب بلادي

وكان عمر بن قدور يوقع مقالاته فيها باسم (أبو حفص) ، ليكون لساناً صادقاً ، متحمساً ، ناطقاً بالحق مهما كان الثمن ، وقد كان الثمن باهظاً فعلاً ، فبعد أن أصدر عمر بن قدور من فاروقه خمساً وتسعين عدداً في فترة دامت عامين إلا شهراً ، أوقفتها الحكومة الإستعمارية ، بسبب مقال كتبه فيها ينتصر فيه للترك ضد الحلفاء ، فكان عقابه

(١٠) - محمد صالح الجابري ، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠ - ١٩٦٢ ، الجزائر ، الدار العربية للكتاب ،

١٩٨٣ ، ١٥٤؛ و عادل نويهيض ، معجم أعلام الجزائر ، بيروت ، مؤسسة نويهيض الثقافية ، ط٢ ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ ، ٢٤٤.

(١١) - انظر ، صالح الخرفي ، شعراء من الجزائر ، القاهرة ، دن ، ١٩٦٩ ، ٣٧؛ وانظر ، محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ -

١٩٣٩ ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٠ ، ٣٦.

(١٢) - الفاروق ، العدد الأول ١٨ / ٢ / ١٩١٣ ، نقلاً عن محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ - ١٩٣٩ ، ٣٦.

(١٣) - زاهر احداث ، الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها إلى سنة ١٩٣٠ ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٨٦ / ١٤٠٦ ، ٣٠ -

٣٦.

(١٤) - محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ - ١٩٣٩ ، ٣٦.

على كلمته الحرة ، ورأيه الصريح ، بالإضافة إلى تعطيل جريدته ، السجن والنفي إلى الأغواط ، وقد قطع الطريق بين العاصمة والأغواط مشياً على قدميه ، وظل في منفاه خمس سنوات ذاق خلالها العذاب الكبير (١٥).

إلا إن هذا النفي لم يؤثر على الرجل ، فقد عاد بعزيمة قوية ، وبأشرف إصدار الفاروق مرة أخرى ، وكان ذلك في ٨ أكتوبر من سنة ١٩٢٠م ، ولكن الظروف كانت أقوى من الحماسة فتوقفت الفاروق نهائياً بعد أن صدر منها خمسة عشر عدداً ، وذلك في ٢٦ مارس ١٩٢١م (١٦).

لم يكن توقف الفاروق إلا صرخة مؤلمة ، عبر من خلالها عمر بن قنور عن مدى المصاعب التي واجهته ، كمصلح وداعية ، في مجتمع خاضع لاستعمارين ، استعمار الغزاة الأجانب ، واستعمار التدين المنحرف ، وقد وجد عمر بن قنور نفسه كمن ينفخ في قربة مقطوعة كما يقول المثل العربي ، فأثر الاعتزال حتى مات سنة ١٩٣٢م. وقد أعلن عن عزله قائلاً : « إنني أعلن صراحة بأنني عطلت جريدة الفاروق ، وفارقت السياسة ، واجتنبت كل خوض فيما يخص الجرائد وغيرها ، ولازمت العزلة التامة » (١٧). فهل كان محققاً في هذا ؟ قد نجد له العذر في ذلك ، وقد نقول إن ما لاقاه في حياته من ملاحقة وتضييق وسجن ونفي كفيف بتحطيم أعتى الرجال ، وببث الوهن في أصلب النفوس ، ولكن رحلة الإصلاح ليست مفروشة بالزهور ، إنها تحتاج إلى صبر ومثابرة ، وهل حياتنا إلا سعي وعمل ؟ أقول هذا وأنا أكيدة من كون هذا الرجل قد قدم شيئاً مهماً في حياته ، وأنه كان مصلحاً قوياً ، تحمل الكثير الكثير من العذاب وخيبات الأمل ، في سبيل تحقيق الغاية التي كان ينشدها ، فلا أملك إلا الدعاء له بالمغفرة والرحمة والثواب الحسن عند ربه جل وعلا جزاء سعيه وصبره.

عمر بن قنور الشاعر الملتزم :

سخر عمر بن قنور موهبته الشعرية في سبيل الإصلاح ومحاربة البدع ، فكان شاعراً ملتزماً بفكرة النهوض بالأمة ، ومحاربة الخمول والانحراف .

وإذا ما قرأنا شعره نلمس ذلك الحرص الشديد على رفعة الأمة ، وتلك الرغبة الصادقة في تقدمها ونهوضها ، وذلك الألم من ضعف الوسائل والإمكانات المساعدة على تحقيق تلك الغاية ، ففي قصيدته (قلب أو اب) التي نشرها سنة ١٩١٣م يقول :

لا تفتنيه فإن الوجد يشغله * والجد يملكه والحق يعقله

(١٥) - صالح الخرفي ، شعراء من الجزائر ، ٣٧؛ و محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ - ١٩٣٩ ، ٣٧؛ و محمد صالح الجابري ،

النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠ - ١٩٦٢ ، ٢٢٥.

(١٦) - زاهر احداث ، الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها إلى سنة ١٩٣٠ ، ٣٦.

(١٧) - نُشر هذا الكلام في جريدة التقدم ، ١٩٢٤م.

قلب له أرب ، أعلى مراتبه * أن يُبصر الشعبَ والإصلاحُ يدخله
رحمك يا رب كم أنشأت من ذمم * إلا ودينك بالأرزاء تهمله
واخترت حامله فرداً وأمته * منحطه شهما الأواب تحذله
واخترته معدماً قَلت وسائله.* والنهج من صولة الأخطار يذهله
يكاد يفنى أسي مما يحيط به.*. لكن يرى رأفة المولى تظلمه
ألا ليق عزير الصبر أكثفه.*. عسى الليالي تريه ما يؤمّله

وفي قصائد أخرى يصور عمر بن قذور حالة الانحراف الديني التي كان يعاني منها الجزائر ، فقد تمثل الدين بعلماء جهال خونة ، كان همهم الوحيد جمع المال والوصول إلى المناصب العالية ، فسهلوا مهمة المستعمر ، وخذروا الشعوب ، وأوهنوا العزائم :

من جنایات الرجال العلما * أصبح الدين عدو الأنفس
لا يضيع الدين إلا حينما * يظهر الكيد له من حارس
خاب من نال بكيد الدين ما * يشتهي من مأكّل أو ملبس

فإذا وُجد في الجزائر علماء خونة ساعدوا المستعمر ، وخذروا الشعوب ابتغاء المال والمنصب ، فقد ابتليت البلاد الإسلامية عموماً ، بعلماء يرون المنكر ولا ينكرونه ، ويسكتون عن ظلم السلاطين ، فكانت جناية سكوتهم على الضلال أشد خطراً على الأمة ، لأنهم ساعدوا في انهيار دولة الإسلام :

ولقد أطل المسلمون سكوتهم.....فكأنهم بين الورى أموات
وكذلك الإسلام أهمل شأنه.....وقلاه قوم للعلوم جفاة
منهم لسوء فعالهم يتبرأ القر.....آن والإنجيل والتوراة
فغدا الجهول يسودهم ولغيهم.....زعماء سوء للضلال حماة
فالجهل يملك والغرور يملّه.....وذوو الفساد على الجميع رعاة

فعلاً و « ذوو الفساد على الجميع رعاة » ، وتساءل هل اختلفت الحالة بعد كل هذه السنين ؟ أعتقد أنها ما تزال كحالها في زمن عمر بن قذور ، ولعلها في يومنا هذا أكثر إيلاماً ، وأكثر إثارة للإشمئزاز والتقزز. هذا الإحساس بالألم ، وهذا الهجوم العنيف على من خانوا الأمانة ، يظهران لنا مدى الضيق الذي كان يشعر به عمر بن قذور ، ومدى العجز الذي يجعله يشعر وكأنه مكتوف اليد ، لا يملك إلا غزير الدمع على مجد قد ضاع ، وما أكثر الأبيات التي قالها مذكراً الأمة بماضيها الزاهر ، مستنهضاً عزيمتها ، يقول :

ألا يا بني السمحاء هلا شعرتمو * بني الذلة الكبرى وحرّ لظاها

جبتنم فعوقبتنم ، وختنم فيؤتمو * بها ضربة نجلاء حمّ قضاها
متى تفقهوا سر التقدم والنهي*. متى تدفعوا شرّ المنون وداها
وفيكم كتاب الله لازال ناطقاً*. كما كان في عهد الهدى بحجاها
يناشدكم ألا تكونوا أذلة*. وكونوا شداداً ضد بغى عداها

ويقول أيضاً :

يا شرق هل هذه المصائب تنجلي*. أو ينتهي الغليان من ذا الرجل
يا شرقنا إني ظننتك ناهضاً*. فجعلت ظني الماء وسط المنخل
يا شرقنا حتى متى نجني المنى*. أم ذي المنى عنوان ما لم نعمل
يا شرق مالعقول قومك لا تعي*. نصحاً من الماضي إلى المستقبل؟
فكأنها عميت فلم تبصر أنا*. ساء ، لا ولا خلقاً ولم تتجول
لو كنت تعلم كيف تعمل للعلا*. لغدا لمدرسة بنوك ومعمل
يا شرقنا يكفيك ما هو حاصل*. فأعد فعال السالفين البسل
وانهض فديتك واتخذ لك قوة*. مقرونة بالسعي دون تمهل
إن القوى عند الشدائد تُبتغى*. بالحزم والتدبير ثم الصيقل

لم ينل عمر بن قذور حظه اللائق من الدرس والبحث ، ولكن نظرة سريعة تجعلنا نشعر أن هذا الرجل يمكن
عدّه بحق رائداً من رواد الإصلاح العربي خاصة والإسلامي عامة ، بالإضافة إلى امتلاكه حساً شعرياً راقياً ، يمكننا من
تصنيفه في مرتبة متقدمة بين شعراء العرب الملتزمين .

وما يزال صوته مدوياً في آذاننا ، على الرغم من أن استجابتنا لم تختلف عن استجابة من عاصروهم عمر بن
قذور ، فما زال العرب والمسلمون في غفلة وانحطاط ، وما يزال أمثال عمر بن قذور يقولون كما قال :

عظيم على نفس اللبيب مذلة*. تدوس نفوساً تُستهاض وتظلم
ولكن مجاري الدهر دقت لحكمة*. فركن الوفا بين العباد مهدم